

سُورَةُ الزُّخْرِفِ

حين ينطفئ بريقُ الأرض أمام نور الآخرة

❖ تأليف: رَدَّاد السَّلَامِي ❖

سُورَةُ الزُّخْرِفِ

حين ينطفئ بريقُ الأرض أمام نور الآخرة

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

السورة التي تدخل إلى القلب من باب الأشياء اللامعة
يا صاحبي، اقترب قليلاً من هذا الضوء الذي لا يندع.
فإن سورة الزخرف لا تبدأ بأن تقول لك: ازهد في الدنيا.
إنها تفعل شيئاً أعمق.
ترك الدنيا أولاً.
ترك الذهب.
والفضة.
والقصور.
والسلطان.
والأسواق.
والوجاهة.
والآباء الذين يورثون أبناءهم أوهاماً قديمة.
والملوك الذين يظنون أن الأنهار التي تجري تحت أقدامهم شهادة من السماء على أنهم على الحق.
ثم تأخذك من يدك، بهدوء الوحي، وتضع كل هذا اللبعان أمام ميزانٍ واحد:
ماذا يساوي إذا غاب الله عن القلب؟
هنا تبدأ الرحلة.
سورة اسمها الزخرف، لكن مقصدها أن تنزع الزخرف عن الأشياء حتى ترى حقائقها.
أن تفصل الذهب عن القيمة.
والقوة عن الحق.
والكثرة عن الهداية.
والثراء عن الكرامة.
والعادة عن البرهان.
إنها لا تحارب الجمال، وإنما تحارب الخديعة التي قد ينسجها الجمال حول القلب.
ولا تدم النعمة، وإنما ترفض أن تتحول النعمة إلى حجاب.
فالشيء قد يكون جميلاً في يدك، ثم يصبح صمّاً حين يدخل قلبك.

وهكذا نُمضي.

من حم...

إلى آخرِ كلمة تقولها السورة للجاهلين:
(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

كأن الطريق كله يبدأ بسرّ الوحي، وينتهي بسلام الواقع.

المحطة الأولى

حين يأتي القرآن قبل كل شيء

يا قلب، قبل أن تنظر إلى الدنيا، تعلم كيف تنظر إلى الكلام الذي جاءك من فوق الدنيا.

(حم) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

هكذا تفتح السورة بابها.

لا حديث عن الذهب بعد.

ولا عن فرعون.

ولا عن قريش.

ولا عن زخرف البيوت.

في البدء يأتي الكتاب.

لأن اختلال الحياة يبدأ غالباً من اختلال المرجع الذي ننظر به إليها.

إنك لا تستطيع أن تعرف حجم الدنيا الحقيقي إذا كنت تقيسها بالدنيا نفسها.

ولا تستطيع أن تعرف معنى القوة إذا كان القوي هو الذي يعرف لك القوة.

ولا معنى النجاح إذا كان الناجحون في الأسواق هم الذين يكتبون قاموس النجاح.

لا بد من صوت يأتي من خارج هذا الصخب.

صوت لا يخضع لسوق.

ولا لإمبراطورية.

ولا لجمهور.

ولا لذوق العصر.

ذلك هو الوحي.

(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ).

تأمل:

لعليّ حكيم.

فالقرآن الذي قد يحمله طفلٌ في يده، ويقرؤه فقيرٌ في غرفة صغيرة، وتتهجّاه عجوزٌ في آخر

الليل، هو في أصله كلامٌ رفيع المنزلة، محكم الحكمة.

وهنا أول انقلاب في موازين الزخرف:

ليس العلو أن تكون لك نافذة تطل على مدينة.

العلو أن يدخل قلبك شيءٌ من هذا القرآن.

وليس الغنى أن تتسع خزانة بيتك.

الغنى أن يتسع صدرك لمعنى من كلام الله.

وقد يكون الرجل مجهولاً في الأرض، معروفاً بالقرآن في السماء.

وقد يكون مشهوراً بين الناس، فارغاً من المعنى عند الله.

من هنا تبدأ السورة بإعادة ترتيب المقامات.

قبل أن تقول لك من الغني...

تعلمك من العلي.

وقبل أن تحدثك عن الحكام...

تحدثك عن الحكمة.

حين يستمر الوحي رغم إعراض الإنسان
يا من أثقلت خطاياك، لا تظن أن إهمال الله لك يعني أنك خرجت من عنايته.
(أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الدِّكَرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ).
يا لها من آية.

كأن الرحمة تسأل المسرفين:
أنت ترك تذكيركم لأنكم أسرفتم؟
أنحجب عنكم النور لأنكم أغمضتم أعينكم؟
إن من عجيب رحمة الله أنه يرسل الكلمة مرة بعد مرة إلى قلب يهرب منها.
الإنسان يسرف.
والذكر يعود.

الإنسان ينسى.
والقرآن يطرق الباب.
الإنسان يبتعد.
والآية تقف أمامه من جديد.
وكان الله لم يجعل الوحي جائزةً للكاملين، بل دواءً للضالين أيضًا.
ثم تفتح السورة نافذة التاريخ:
(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).
إن السخريّة من الحق ليست جديدة.
والوحشة التي يشعر بها المؤمن حين يرى الباطل عالي الصوت ليست حادثةً بلا سابقة.
لقد عبر الأنبياء هذا الطريق.
وسمّعوا الضحك.
والاستهزاء.
والإتهام.
ورأوا المجتمعات تتواطأ على رفض كلمة واحدة.

لكن الضجيج لا يغيّر الحقيقة.
كم من حق سخر منه أول النهار، ثم بكت الأمم على ضياعه آخره.
وكم من باطل صفق له الناس طويلاً، ثم لم يبق منه إلا العبرة.
فلا تقيس الفكرة بعدد المصنفين.
ولا تقيس الطريق بعدد السالكين.
إن الحقيقة لا تستمد حقيقتها من الجمهور.

المحطة الثالثة

الأرض التي تعترف بخالقها وإن أنكره الإنسان
يا صاحبي، اخرج قليلاً من صخب البشر، واسأل الجبال والسماء والمطر عمن يعرفونه.
تلتفت السورة إلى المشركين:
(وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).
المشكلة لم تكن دائماً أنهم لا يعرفون أن الله خالق.
بل أنهم لم يسمحوا لهذه المعرفة أن تصبح حياة.
وهذه إحدى أخطر مسافات الضياع:
المسافة بين أن تعرف الله وأن تعيش لله.
قد يعرف الإنسان أن الرزق من الله، ثم يذل نفسه للخلق.
ويعرف أن الموت آتٍ، ثم يعيش كأنه خالد.
ويعرف أن القرآن حق، ثم يجعل هواه هو الحكم.
ويعرف أن الله يرى، ثم يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله.
المعرفة التي لا تنزل إلى السلوك تتحول إلى معلومة باردة.
والتوحيد ليس جواباً صحيحاً في امتحان عقيدة.
التوحيد أن يعيد جوابك تشكيل خوفك ورجائك وولائك ورغباتك.
ثم تصف السورة الأرض:
(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).
مهداً.

يا لحنان الكلمة.

هذه الأرض الصلبة الهائلة تحولت بقدرة الله إلى مهد.

تمشي فوقها.

وتنام عليها.

وتزرعها.

وتشق الطرق فيها.

وتبني بيتك على ذرات تراب معلقة في كون لا تعرف أطرافه.

كم نحن محمولون دون أن نشعر.

وكم من نعمة صامتة لا نسمع صوتها لأن دوامها خدر إحساسنا بها.

المحطة الرابعة

المطر الذي يوقظ الأرض ويوقظ معنى البعث

يا من ظننت أن بعض الأشياء ماتت إلى الأبد، انظر كيف يتعامل الله مع الأرض الميتة.
(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

ينزل الماء.

ولا ضجيج.

قطرات صغيرة.

لكنها تحمل أمراً أكبر منها.

تسقط على أرض شاحبة، ثم يبدأ الأخضر بالخروج من قلب الموت.

وكأن الله يجعل الربيع حجة لتكرر كل عام على من يستبعد القيامة.

من أخرج هذا النبات من التراب؟

من أعاد اللون إلى أرض كانت كأنها جثة؟

من وضع سر الحياة في قطرة؟

(كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

هكذا ببساطة.

لا تجعل القيامة بعيدة لأنك لم ترها.

أنت ترى صورتها المصغرة في كل مطر.
والقلب كذلك.
قد تمر عليه مواسم فقط.
يجف.
تهت فيه لذة الصلاة.
تتناقل فيه الروح.
ثم تنزل عليه آية في لحظة صدق، فإذا ما ظننته ميتاً يورق.
للقلب أمطار أيضاً.
وأصدق مطره كلام الله.

نعمة الركوب وذكر المنعم

يا مسافراً فوق ما سخره الله لك، لا تدع الطريق ينسبك صاحب الطريق.

تقول السورة:

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٠﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ).

هنا يعيد القرآن للوسيلة معناها.

أنت لا تركب للتنقل فقط.

بل لتذكر.

حتى الحركة اليومية يمكن أن تصبح عبادة إذا رددت إلى المنعم.

ثم يأتي الدعاء:

(سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١١﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ).

عجيب هذا الانتقال.

من ظهر الدابة والسفينة...

إلى الآخرة.

تركب مركباً فيذكر القرآن بالرحلة الكبرى.

وكأنه يقول:

كل سفر صغير تدريب على سفر لا عودة منه إلى الدنيا.

كل طريق ينتهي.

كل مركب يتوقف.

كل مدينة تصلها ثم تتركها.

لكن ثمة رحلة يكون وصولها هو بداية الحياة التي لا تنقطع:

(وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ).

ما أرق هذه الكلمة إذا استقرت في قلب مسافر.

وما أشدها إذا استقرت في قلب غافل.

حين يتكلم الإنسان عن الغيب بلا علم
يا قلب، لا تجعل خيالك عقيدة، ولا تجعل الظن كلاماً عن الله.
بعد هذه الآيات التي تملأ الكون بأدلة التوحيد، نرى الإنسان يقتحم الغيب بجرأة:
(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ).
ثم تكشف السورة تناقضاً فادحاً في تصورهم للملائكة.
إنها مشكلة قديمة تتكرر في صور جديدة:
أن يتحدث الإنسان عن الله بما يوافق أوهامه لا بما جاء به الوحي.
والعقيدة ليست مجالاً لترف الخيال.
الله يُعرف بما عرّف به نفسه.
والغيب يُتلقى من خبره سبحانه.
فالعقل يهتدي بالوحي، ولا يصنع من عنده سماءً أخرى.
ثم تسأل السورة:
(أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ).
يا لها من صفة معرفية.
أشهدوا؟
هل كانوا هناك؟
فإذا لم يشهدوا، فمن أين جاء اليقين؟
كم من إنسان يقول في أعظم القضايا كلاماً لم يقم عليه دليل، ثم يعيش كأنه رأى الغيب بعينه.
القرآن يري فينا أدب المعرفة:
أن تعرف حدودك.
فالقول على الله ليس مساحةً للزينة الفكرية.
إنه مقام خشية.

حين يتحول الآباء إلى حجاب

يا من تحب أهلك وتجلُّ أسلافك، لا تجعل الحب يمنعك من رؤية الحق.
(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ).

هنا صنم لا يصنع من حجر.

اسمه: ما وجدنا عليه آباءنا.

فالإنسان قد يتحرر من وثن في معبد، ثم يسجد في داخله لعادة.
وقد يرفض التماثيل، لكنه يخشى أن يسأل:

هل ما ورثته حق؟

وتقول السورة إن هذا المنطق قديم:

(وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ).

ولم تقل الآية فقط: أهلها.

قالت:

مترفوها.

لأن الترف أحياناً يخشى الحقيقة أكثر من الفقر.

الحقيقة قد تعيد ترتيب الامتيازات.

وقد تهز مقاماً اجتماعياً.

وقد تسأل الغني: من أين؟

وتسأل الزعيم: بأي حق؟

وتسأل العالم: أين الدليل؟

وتسأل الجماعة: لماذا؟

لذلك لا يكون رفض الحق دائماً بسبب غموضه.

أحياناً يكون واضحاً جداً، وهذه هي المشكلة.

إبراهيم حين حطم الميراث الخاطئ بكلمة واحدة
يا طالب النجاة، لا تخش أن تكون وحدك إذا كان الله معك.
يأتي إبراهيم.

في وسط عالم من الموروثات:
(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ).
ما أصفى التوحيد هنا.
ليس جدلاً طويلاً.
إنه انفصال داخلي كامل:
(إِنِّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ).
ثم تعلق مطلق بالواحد:
(إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).
ولم يقل: فطر العالم فقط.
قال:

فطرنى.
هنا يصير التوحيد شخصياً.
الذي خلقتني.
الذي يعرف خفاي.
الذي بدأنى من العدم.
الذي يحمل أنفاسي.
ذلك وحده يستحق قلبي.
ثم تأتي الجملة التي تصلح رفيقاً للعمر كله:
(فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ).
أي يقين هذا؟
لم يقل: ربما.

ولا: أتمنى.

قال:

سيهدين.

إن المؤمن لا يعرف الطريق كله، لكنه يعرف الهادي.

وهذا يكفي.

ثم يقول الله:

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

كلمة التوحيد أبقى من الممالك.

أين ملوك عصر إبراهيم؟

أين قصورهم؟

أين كنوزهم؟

ذهب الزخرف.

وبقيت الكلمة.

وهذه إحدى رسائل السورة الخفية:

لا تسأل فقط ماذا تملك.

اسأل:

ماذا سيبقى منك؟

حين يريد الناس أن يختاروا لله رسوله
يا صاحبي، احذر أن تجعل مقاييس السوق حَكًّا على اختيار السماء.
قالوا:
(لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ).
لم يعترضوا فقط على الرسالة.
بل على الرسول.
في تصورهم كان ينبغي للوحي أن ينزل على رجل يطابق تعريفهم للعظمة.
ثري.
وجيه.
صاحب نفوذ.
كأن السماء لا بد أن تستأذن سلَّهم الاجتماعي قبل أن تختار نبيها.
فيرد القرآن:
(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ).
كلمة تقطع الوهم من جذره.
منذ متى صار البشر يوزعون رحمة الله؟
ثم يقول:
(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).
حتى الدنيا التي يتفخرون بها ليست من صنعهم الخالص.
الرزق مقسوم.
والقدرات موزعة.
والأبواب تفتح وتُغلق.
ثم تأتي القاعدة المضيقية:
(وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ).
قف هنا طويلاً.

خير مما يجمعون.

كل ما يجمعه البشر.

الأموال.

العقارات.

الأسماء.

المتابعون.

الشهادات.

المناصب.

الذكريات.

السلطة.

إذا وضعت رحمة الله في كفة، وكل هذا في كفة...

مال الميزان للرحمة.

فما الذي يضرّك إذا قلّ ما في يدك، وكثر ما بينك وبين الله؟

لو كان الذهب دليل الكرامة

يا من بهرتك البيوت العالية، تعال لترى كيف ينظر القرآن إلى الذهب.

ثم تبلغ السورة قلب موضوعها:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿١﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكئونَ ﴿٢﴾ وَزُخْرَفًا ﴿٣﴾).

هنا تنكسر تعويذة الذهب.

لو كان الذهب علامة على محبة الله، لما أمكن أن يُعطى للكافر.

لكن السورة تقول لك:

إن الله قادر أن يجعل بيوت الكافرين كلها فضةً وذهباً.

إذن...

هذه الأشياء لا تحمل بذاتها شهادة الكرامة.

الذهب معدن.

والفضة معدن.

والقصر بناء.

والسيارة آلة.

والثوب قماش.

نحن الذين ننفخ فيها المعاني حتى تتحول إلى مقاييس للأشخاص.

ثم تأتي الضربة الأخيرة:

(وَأَنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ).

متاع.

كلمة صغيرة تعيد القصور إلى حجمها الحقيقي.

متاع.

يُستخدم.

ثم يُترك.

لا تذمه السورة لذاته.
لكنها تمنعك أن تعطيه أكثر مما يستحق.
المشكلة ليست أن يكون الزخرف في بيتك.
المشكلة أن يكون بيتك داخل قلبك.
أن تفرح به فرح المنتصر الأبدى.
وأن تحزن لفقده حزن من فقد معنى وجوده.
الزاهد الحق قد يملك، لكنه لا يملك.
وقد يكون الذهب في يده، وقلبه أبعد ما يكون عن الذهب.
وقد لا يملك الفقير شيئاً، ومع ذلك يسكن الزخرف قلبه؛ لأنه يقضي عمره يتحسر عليه.
الزهد ليس مقدار ما في اليد.
الزهد مقدار ما استولى على القلب.

العمى الذي يبدأ بالإعراض عن الذكر
يا قلبُ، لا تخف من فقر اليد بقدر ما تخف من فقر الذكر.
(وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ).
يا لهولها من نتيجة.

حين يبتعد القلب عن الذكر لا يبقى فارغاً.

يدخل شيء آخر.

هذه طبيعة القلب:

لا بد أن يسكنه أحد.

إذا غاب منه نور الذكر، بحث الظلام عن مدخل.

والآية لم تقل فقط: عن ذكر الله.

قالت:

ذكر الرحمن.

كأن الإعراض ليس إعراضاً عن تكليف ثقيل، بل عن باب رحمة.

إنك حين تهجر القرآن لا تهجر كتاب أوامر فحسب.

تهجر خطاب الرحمن إليك.

تهجر النور الذي يعرف خريطة قلبك.

وما أخطر العقوبة:

(فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ).

القرين لا يأتي دائماً بوجه خفيف.

قد يأتيك فكرة تبدو ذكية.

أو شهوة لها تبرير.

أو كبرياء في ثوب كرامة.

أو معصية يسمونها حرية.

أو ضلالاً يسمونه تحرراً.

ثم:
(وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ).
وهذه أشد مراحل الضياع:
ألا تضيع فقط...
بل تظن أنك وصلت.

المحطة الثانية عشرة

يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين
يا صاحبي، اختر رفقاء روحك قبل أن يأتي يوم تمتي فيه الحرب منهم.
(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ).
كم من صحبة تبدأ بضحكة وتنتهي بحسرة.
وكم من فكرة استأنس بها الإنسان سنوات، ثم يراها يوم القيامة وحشاً يقف بجانبه.
الصحبة ليست فقط أشخاصاً.
قد يكون قرينك شاشية.
أو كتاباً.
أو صوتاً.
أو عادة.
أو هوىً يتكرر حتى يصبح جزءاً من تعريفك لنفسك.
فاسأل قلبك أحياناً:
من الذي أمشي معه؟
من يشكل رؤيتي؟
من يعلبني ماذا أحب وماذا أكره؟
من يملأ المساحات المأداة من يومي؟
فإن الإنسان يصير شيئاً من أصوات الذين يسمح لهم بالإقامة الطويلة داخله.

الرسول لا يملك أن يفتح قلباً أغلقه صاحبه
يا من تحمل همَّ هداية من تحب، أدِّ ما عليك ثم سلِّم القلوب لخالفها.
(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).
هناك حدود تقف عندها طاقة الداعية.
يمكنك أن تقول.
أن تكتب.
أن تحب.
أن تنصح.
أن تبكي سراً.
أن تطرق الباب مرةً بعد مرة.
لكن لا تستطيع أن تزرع الإيمان بقوة يدك داخل قلب آخر.
الهداية سر بين الله والقلب.
وهذا يحرر المؤمن من وهم السيطرة على نتائج الدعوة.
ليس مطلوباً منك أن تجعل الناس مهتدين.
مطلوب منك ألا تخون النور الذي عرفت.
أن تكون شاهداً.
أما فتح البصيرة فيبد الله.
وهنا راحة عظيمة للعاملين للحق:
إذا صدقت، فليس فشل الناس في الاستجابة دليلاً على فشل رسالتك.
لقد أعرض الناس عن أنبياء.
فلا تجعل عدد المستجيبين ميزان صدقك.

تمسك بما أوحى إليك
يا من كثرت حوله الطرق، لا تبحث عن النجاة في كثرة الخرائط؛ تمسك بالحبل الذي لا
يضل.

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).
استمسك.

ليست كلمة مرور عابر.
إنها قبضة غريق على حبل النجاة.
فالفتن لا تطلب منك دائماً أن تنكر القرآن صراحة.
يكفيها أحياناً أن ترخي قبضتك قليلاً.
أن يصبح الوحي واحداً من أصوات كثيرة.
أن تستشيريه ولا تحتكم إليه.
أن تضعه في الرف الروحي، بينما تدير حياتك بمقاييس أخرى.
لكن الأمر:
استمسك.

لأن التيار قوي.
تيار الشهوة.
وتيار الخوف.
وتيار الرأي العام.
وتيار المال.
وتيار السلطة.
وتيار الموضة الفكرية.
والذي لا يستمسك يأخذه الماء دون أن يشعر.
ثم يقول:
(وَأَنَّهُ لَدِكُّ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ).

القرآن شرف.
لكنه مسؤولية أيضاً.
والشرف الذي لا يحمل صاحبه على الوفاء يتحول سؤالاً يوم القيامة.

المحطة الخامسة عشرة

فرعون حين جعل النهر حجة
يا قلب، لا تتخذه بمن يملك المسرح؛ فقد يملك المسرح ويكون خاسر القصة كلها.
ندخل الآن إلى مصر فرعون.
إلى السلطة حين تتزين.
إلى الطغيان حين يتكلم بلغة الإنجاز.
(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).
موسى يبجيء بشيء لا يملكه فرعون:
الحق.
وفرعون يملك شيئاً لا يملكه موسى:
القصور والجند والنهر والذهب.
وهنا الامتحان الأبدي:
أي الكفتين تراها عينك أثقل؟
ثم يقف فرعون يخاطب قومه:
(يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ).
نعم.
إنها لغة الزخرف نفسها.
أفلا تبصرون؟
انظروا إلى ما أملك.
إلى النهر.
إلى الملك.
إلى المسرح.

إلى المظاهر.

كأنه يقول:

أليست القوة دليل الحق؟

وهنا يأتي القرآن ليقول عبر القصة كلها:

لا.

قد تجري الأنهار تحت قدم باطل.

وقد يعيش الحق مطاردًا في الصحراء.

الماء لا يمنح العقيدة صحتها.

والقصر لا يصنع الحقيقة.

المحطة السادسة عشرة

أم أنا خير من هذا الذي هو مهين؟

يا صاحبي، إياك أن تحتقر حامل الحق لأن ثوبه لا يلمع.

يواصل فرعون:

(أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ).

هذا هو منطق الزخرف حين يتحول إلى معيار للإنسان.

فرعون لا يناقش رسالة موسى.

بل ينظر إلى صورته الاجتماعية.

من معه؟

ماذا يملك؟

كيف يتكلم؟

أين أساوره؟

(فَلَوْلَا أَلْتَمِئَ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ).

أساوره من ذهب.

مرة أخرى الذهب.

كأن السورة تعتمد أن تضعه أمامك كل مرة حتى تفك الارتباط بينه وبين الحقيقة.

فرعون يقول:

لو كان موسى عظيماً، أين الذهب؟

والقرآن يقول:

لو كنتم تعرفون العظمة، لما سألتهم عن الذهب أصلاً.

كم من صاحب حق خسر معركة الصورة، وريخ معركة الخلود.

وكم من صاحب باطل امتلأت يده بالأساور، ثم لم يجد عند الموت سواراً واحداً يمنع عنه الهلاك.

فاستخف قومه فأطاعوه

يا من تخشى الطغاة، انتبه: إن الطغيان لا يقوم بقوة الطاغية وحدها.

ثم تأتي واحدة من أعمق الجمل السياسية والنفسية في القرآن:
(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ).

لم يقل فقط: أجبرهم.

قال:

استخفهم.

جعل عقولهم خفيفة.

وعندما تخف العقول يسهل قيادها.

الطاغية يحتاج إلى شعب يعطل سؤاله.

إلى جمهور يصفق قبل أن يفهم.

إلى أعين تبهرها الأنهار.

إلى نفوس تظن الذهب دليلاً.

إلى بشر يكررون الخطاب الذي صيغ لهم.

ثم تأتي النتيجة:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ).

فالاستبداد ليس آلةً فوقية فقط.

إنه قد يجد في الداخل استعداداً للطاعة العمياء.

ولهذا يبدأ التحرر الحقيقي باستعادة الإنسان لوزنه أمام الله.

من عرف أن له رباً فوق كل ملك، صعب أن يستعبد قلبه ملك.

ومن أيقن أن الأرزاق بيد الله، لم يجعل خوف الراتب ديناً.

ومن عرف أن الموت موعد، لم يحسب السلامة الجسدية أعلى القيم.

التوحيد يصنع في الإنسان وزناً لا تستطيع الدعاية أن تستخفه بسهولة.

حين يغرق الزخرف

يا صاحبي، اسأل كل ما يلع حولك سؤالاً واحداً: هل يستطيع أن ينجو من أمر الله؟
(فَلَمَّا أَسْقُونَا ائْتَمَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ).

انتهى المشهد.

أين مصر التي كان فرعون يشير إليها؟

أين الأنهار التي جعلها برهانه؟

المفارقة مذهلة:

افتخر بالماء.

وكان الماء نفسه طريق هلاكه.

قال:

هذه الأنهار تجري من تحتي.

ثم جرى أمر الله فوق كل شيء.

لا تحم الأشياء أصحابها إذا جاء قدر الله.

قد يتحول مصدر القوة إلى باب السقوط.

وقد يصير الشيء الذي تفاخر به الإنسان شاهداً على ضعفه.

(فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ).

الطغاة يظنون أنهم يصنعون التاريخ.

ثم يكتشفون أنهم أصبحوا عبرة في التاريخ.

يريد أن يكون تمثلاً للمجد.

فيصبح مثلاً للهلاك.

وهكذا يذوب الزخرف مرة أخرى.

عيسى: عَبْدُ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
يا قَلْبُ، حينَ تحب الصالحين، أحبهم كما أراد الله، لا كما تدفعك المبالغة.
تنتقل السورة إلى عيسى عليه السلام.
ويقول الله:
(إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ).
في كلمة واحدة يعيد القرآن المعنى إلى نصابه:
عبد.

ويا لجمال العبودية إذا قيلت في حق نبي عظيم.
فأعلى ما يصل إليه الإنسان ليس أن يخرج من مقام العبودية، بل أن يحققه كاملاً.
الأنبياء لا يقودونك إلى أنفسهم.
يقودونك إلى الله.
وكل محبة تجعل المخلوق يزاحم الخالق فقد تجاوزت حدها.
إن من صفاء التوحيد أن تعرف لكل أحد مقامه.
تحب الأنبياء.
وتوقرهم.
وتتبعهم.
لكن قلب العباد لا يخني إلا الله.

الصراط المستقيم ليس فكرةً غامضةً
يا من تبحث عن الطريق، لا تجعل كثرة الأسئلة تحجب عنك بساطة الجواب.
يقول عيسى في خطاب السورة:
(إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ).
ما أبسط الحقيقة حين يجردنا الوحي من التعقيد.
الله ربي وربكم.
فاعبدوه.
هذا هو الطريق.
لا متاهة فلسفية.
ولا سَلَمٌ خفي لأصحاب الأسرار.
ولا طبقة خاصة تحتكر الوصول.
عبودية لله.
في الصلاة.
وفي الخوف.
وفي الرجاء.
وفي القرار.
وفي المحبة.
وفي المعنى الذي تعيش له.
إن الطريق المستقيم لا يحتاج أن يكون غامضاً كي يكون عميقاً.
الماء واضح، لكنه يحمل سر الحياة.
والنور واضح، لكنه يكشف العالم.
وكذلك التوحيد:
جملة صغيرة.
لكن الكون كله يستقيم بها في القلب.

الساعة التي تأتي بغتة

يا ابن اليوم، لا تؤجل قلبك حتى ينتهي الوقت.
(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).
المشكلة ليست أن الإنسان لا يعرف الموت.
المشكلة أنه يعرفه كما يعرف خبراً لا يعنيه.
الموت أكثر الحقائق يقيناً، ومع ذلك نعيش أحياناً كأنه أقلها احتمالاً.
بغتة.

هذه الكلمة تهدم وهم الموعد الذي نصنعه لأنفسنا.
سأتوب عندما أهدأ.
سأقترب عندما تنتهي مشاغلي.
سأقرأ القرآن إذا تحسنت الظروف.
سأصلح قلبي بعد هذه المرحلة.
لكن المراحل لا تنتهي.
كلما أغلقت الدنيا باباً فتحت آخر.
ومن انتظر فراغ الدنيا لعبادة الله قد ينتظر حتى القبر.
السائر إلى الله لا يحتاج حياةً خالية من الأشغال.
يحتاج قلباً يعرف ما هو الأهم وسط الأشغال.

حين تتقلب الصداقات

يا من تحب أصحابك، ابن صداقتك على شيء يستطيع عبور الموت.
(الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ).
الأخلاء.

ليسوا معارف عابرين.

هم الذين دخلوا القلب.
تقاسموا الضحك.

والسر.

والسنوات.

ثم تأتي القيامة فتفحص أساس العلاقة.

العلاقة المبنية على معصية تتحول خصومة.

والعلاقة المبنية على هوى قد تتحول لومًا.

أما التي اجتمع طرفاها على الله، فإنها تحمل في داخلها بذرة البقاء.
(إِلَّا الْمُتَّقِينَ).

يا لعظمة الاستثناء.

الإيمان لا ينقذ الفرد فقط.

إنه ينقذ الحب أيضًا.

يجعل المحبة شيئًا يمكن أن ينجو من انهيار الدنيا.

فلا تسأل فقط:

من أحب؟

اسأل:

إلى أين يقودني الذين أحبهم؟

هل نزداد معًا قريبًا؟

أم نتساند ونحن نهبط؟

لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون
يا من حملت الخوف طويلاً، تخيل يوماً يناديك الله فيه بالأمان الكامل.

بعد أهوال القيامة يأتي النداء:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ).

كم في الدنيا من خوف.

الخوف من المرض.

من الفقد.

من المستقبل.

من الفقر.

من الناس.

من انكسار الأحلام.

حتى الفرح الدنيوي يحمل في داخله خوف فقده.

لكن هنا:

(لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ).

انتهى الخوف.

إلى الأبد.

ثم:

(وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ).

وانتهى الحزن.

لا ماضي يؤلمك.

ولا مستقبل يخيفك.

يا لها من نعمة أكبر من كل ذهب وصفته السورة.

لو أعطاك أحدهم بيتاً من ذهب، فستظل تخاف عليه.

أما أن يعطيك الله قلباً لا يخاف أبداً...

فهذه جنة قبل وصف الجنة.

ثم يبين من هؤلاء:

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ).

إنه ثمرة طريق طويل.

صدق في الدنيا.

فأمان في الآخرة.

المحطة الرابعة والعشرون

ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون

يا متعباً من نقص الدنيا، هناك دار لا يصل إليها النقص.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ).

ثم:

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ).

توقف.

لقد عاد الذهب.

لكن ما أعجب الفرق.

في أول السورة كان الذهب فتنةً قد تخدع الإنسان.

وهنا يصير الذهب خادماً لأهل الجنة.

في الدنيا قد يستعبدك الذهب.

في الجنة يطاف به عليك.

وهذه قمة التحرر من الزخرف:

أن تترك التعلق به لله، فيعطيك الله منه ما شاء حيث لا فتنة ولا خوف ولا حساب.

ثم تأتي آية من أجمل أوصاف الجنة:

(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

ما تشتهيه الأنفس.

لا قائمة محدودة.

لا سقف للنعمة.
ولا خوف من انتهاءها.
(وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).
الدنيا يفسد كثيراً من لذتها عليك بأنها ستنتهي.
أما الجنة فحتى الزمن فيها أصبح نعمة.
لا وداع.
لا شيخوخة تقف في نهاية الفرح.
لا موت يترصد المجالس.
لا خبر يأتي فيكسر صباحاً جميلاً.
إنها دار لا يقول فيها أحد:
ليت هذه اللحظة لا تنتهي.
لأنها لا تنتهي.

المحطة الخامسة والعشرون

وتلك الجنة التي أورشتموها بما كنتم تعملون
يا من يسأل عن قيمة خطوته الصغيرة إلى الله، لا تحتقر شيئاً يزرع للأبد.
(وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).
العمل.
ذلك الشيء الذي قد يبدو صغيراً في الدنيا.
ركعتان لا يراهما أحد.
دمعة.
صدقة مستورة.
غض بصر.
كلمة حق.
عفو وأنت قادر.
مصحف تفتحه والناس نائمون.

خطيئة عرضت عليك فقلت في قلبك: إن الله يراني.
هذه الأشياء لا تضيع.
الدنيا تنظر إلى النتائج الكبيرة.
أما ميزان الله فيرى البذور.
رب عمل نسيته أنت، لم ينسه الله.
ورب لحظة مقاومة لهوى مرّت عليك ثقيلة، فإذا بها في الآخرة شجرة ظل.
فلا تحتقر طريقك إلى الله لأن خطواته صغيرة.
الأبد نفسه قد يُبنى من خطوات قصيرة متتابعة.

ونادوا يا مالك ليَقْضِ علينا ربك
يا قلب، قبل أن تختار لذة عابرة، انظر إلى آخر الطريق.
في مقابل الجنة يفتح المشهد الآخر:
(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ).
ثم النداء المفزع:
(وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ).
وصل الألم إلى درجة أنهم يطلبون النهاية.
لكن:
(قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكُونُونَ).
يا لقسوة كلمة ما تكون على من أضاع الحياة القصيرة.
وهنا تظهر حقيقة الزخرف للمرء الأخيرة.
كم كان عمر اللذة؟
ساعة؟
دقائق؟
سنوات قليلة؟
ثم أين ذهب كل ذلك؟
الدنيا بارعة في إخفاء النهايات.
تعرض عليك المعصية في أولها.
ولا تربك آخرها.
تعرض الكأس، ولا تعرض الحساب.
تعرض المال الحرام، ولا تعرض النار.
تعرض التصفيق، ولا تعرض الوحدة في القبر.
أما القرآن فيريك المشهد كاملاً.
لأنه يريد لك أن تختار بعين مفتوحة.

لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون
يا طالب الحقيقة، اسأل نفسك بصدق: هل أريد الحق، أم أريد حقاً يوافقني؟
(لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ).

ليست المشكلة دائماً في غياب الدليل.
قد يكون الدليل حاضراً، لكن النفس لا تحب النتيجة.
فالحق قد يطالبني أن أترك شهوة.
أو أعتذر.

أو أرجع عن رأي.
أو أعترف أنني ظلمت.
أو أتنازل عن مكسب.

وحينئذ يظهر الفرق بين من يبحث عن الحقيقة، ومن يبحث عن تبرير نفسه.
إن محبة الحق عبادة قلبية عظيمة.
أن تقول:

يا رب، أرني الحق حقاً ولو كان على خلاف هواي.
واجعل قلبي قادراً على الرجوع.
فالرجوع إلى الحق ليس هزيمة.
الهزيمة أن تعرف أنك أخطأت، ثم تسكن الخطأ لأن كبرياءك لا يسمح لك بالخروج.

أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون
يا من تخيفك خطط البشر، تذكر أن فوق كل تدبير تدبيراً لا يُغلب.
(أَمْ أَبْرُمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرُمُونَ).
كم تحمل هذه الآية من سكينه.
يخططون.
يدبرون.
يغلقون الأبواب.
يرسمون السيناريوهات.
وقد يبدو لك المشهد كاملاً في أيديهم.
ثم تأتي الجملة من فوق الزمان كله:
(فإِنَّا مُبْرُمُونَ).
هناك تدبير آخر.
لا تراه.
تدبير لا يحتاج إلى إعلان.
ولا جنود.
ولا قنوات.
ولا موافقات.
قد يفتح الله ثغرة في جدار أحكم الناس بناءه.
وقد يجعل في القرار الذي أرادوا به إيذاءك باب خير لك.
وقد يربك خطة كاملة بتفصيل لم يخطر لهم.
ليس معنى هذا أن المؤمن يترك الأسباب.
بل أن يأخذ بها دون أن يعبدها.
يخطط، لكن قلبه ليس معلقاً بالخطة.
يحتاج، لكنه يعلم أن الحفظ من الله.

يتحرك، لكنه يدرك أن التاريخ لا يخرج لحظة واحدة عن سلطان الله.

المحطة التاسعة والعشرون

أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ
يَا مَنْ تَكْتُمُ وَجْعَكَ لَأَنْكَ لَا تَجِدُ مِنْ يَفْهَمِهِ، هُنَاكَ سَمْعٌ لَا يَغِيبُ عَنْهُ هَمْسُ قَلْبِكَ.
(أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى).
اللَّهُ يَسْمَعُ السِّرَّ.

والنجوى.

ما تقوله في الغرفة المغلقة.

وما لم تستطع قوله أصلاً.

وهذا المعنى مخيف للظالم.

لكنه سكينه للمظلوم.

إذا أغلقت الملفات في الأرض، لم يغلق الملف عند الله.

إذا كتم المظلوم شكواه، سمعها الله قبل أن تصير حروفاً.

وإذا دبر المدبرون في الخفاء، فالخفاء وصف بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إلى علم الله.

كم يحتاج المؤمن هذا اليقين حين تضيق به الحيلة:

بلى.

يسمع.

يعلم.

يرى.

ولست منسياً في زاوية الكون.

سبحان رب السماوات والأرض رب العرش
يا قلب، ارفع بصرك فوق الزخارف كلها حتى يستقر عند عظمة من يملكها جميعاً.
تعود السورة في خواتيمها إلى التنزيه:
(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).
سبحان.

كلمة تغسل التصورات البشرية عن جلال الله.
هو سبحانه ليس كمثله شيء.
لا تحيط به أوهام البشر، ولا تقيسه عقولهم على خلقه، ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته.
رب السماوات.
ورب الأرض.
ورب العرش.
في حضرة هذا المعنى، كم يبدو فرعون صغيراً.
وكم تبدو قصور الذهب ضئيلة.
وكم تبدو مخاوفنا التي ملأت الشاشة الداخلية للقلب محتاجة إلى إعادة قياس.
من رب هذا كله؟

الله.
فمَّ يرتجف قلب يعرف ربه؟
ليس معنى الإيمان ألا تحزن.
ولا ألا تخاف الخوف البشري.
بل ألا تجعل خوفك أكبر من الله في قلبك.
أن يكون وراء كل ارتجاف يقين يقول:
ربي أعظم.

وبتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما
يا من يبحث عن السيطرة ليطمئن، لن تطمئن حتى تسلم قلبك للمالك الحقيقي.
(وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).
لاحظ كيف تجمع الآية أطراف الوجود:
الملك له.

العلم عنده.

الرجوع إليه.

ماذا بقي للإنسان ليدعيه؟

نحن نمسك الأشياء قليلاً ثم نتركها.

نسمي هذا: ملكي.

يبقي.

مالي.

مكاني.

لكنها ملكيات مؤقتة داخل ملك الله.

تخرج من الدنيا كما دخلتها.

بلا عقد ملكية.

بلا مفاتيح.

بلا خزائن.

ثم:

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

السورة كلها كانت تعيدك إلى هذا الاتجاه.

كلها شغلك شيء على الأرض، رفعت رأسك:

إليه ترجع.

كلما بهرك زخرف:

إليه ترجع.

كلما أخافك فرعون:

إليه ترجع.

كلما أغراك الذهب:

إليه ترجع.

إن وضوح النهاية يعيد ترتيب الطريق.

المحطة الثانية والثلاثون

ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة

يا قلبُ، حرر رجاءك من المخلوقين قبل أن تضطر إلى ذلك يوم القيامة.
(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

التوحيد تحرير.

تحرير القلب من التعلق الذي لا يليق إلا بالله.

قد تحب الناس.

وتشكرهم.

وتطلب منهم ما يقدرُونَ عليه.

لكن في العمق يبقى رجائك الأكبر لله.

لأنه وحده الذي لا تغلق بابه الأسباب.

وحده يسمعك أين كنت.

وحده يعلم حاجتك قبل كلامك.

وحده إذا أراد شيئاً لم يمنعه مانع.

إن القلب حين يتوزع على أبواب الخلق يتعب.

وحين يعود إلى بابه الأول يستريح.

ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله
يا صاحبي، لا يكفي أن تعرف الجواب الصحيح إذا كان قلبك يسير في الاتجاه الخطأ.
(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ).
سبحان الله.
يعرفون أن الله خلقهم.
ثم يخرفون عنه.
وهذا من أكثر مشاهد السورة تكراراً في صور شتى:
المعرفة وحدها لا تنجي إذا لم تحول إلى خضوع.
يمكن للسان أن يقول: الله.
والقلب يعبد مكانته.
أو ماله.
أو شهوته.
أو ذاته.
التوحيد ليس كلمة تقولها الشفتان فقط.
إنه ترتيب كامل للبرك الذي تدور حوله حياتك.
ما الشيء الذي إذا تعارض مع أمر الله قدمته؟
هناك تختبر توحيدك.
ما الشيء الذي تخشى فقدته أكثر من خشيتك فقد قربك من الله؟
هناك ابحث في قلبك.
فالإنسان قد لا يسجد لصنم مرئياً.
لكن له في الداخل أصنام لا يراها إلا حين تتعارض مع الوحي.

يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون
يا من أتعبك الإعراض، حتى الأنبياء حملوا إلى الله شكوى الطريق.
في نهاية السورة نسمع شكوى الرسول:
(وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ).
يا رب.

ها هو التعب يصعد إلى الله.
ليس شكوى اعتراض.
بل شكوى عبد إلى ربه.
وهذا من أجمل أبواب العبودية:
أن تعرف أين تحمل وجعك.
ليس مطلوباً منك أن تكون صخرة.
الأنبياء دعوا.
وبكوا.
وشكوا إلى الله.

الحزن لا يناقض اليقين.
والتعب لا يناقض الإيمان.
المشكلة ليست أن نتعب في طريق الله.
المشكلة أن تبحث عن الدواء بعيداً عنه.
قل:

يا رب.
في كلمتين قد ينكسر جبل داخل الصدر.
يا رب.
أنت تعرف ما لا يعرفه أحد.
يا رب.

أنت ترى الطريق كله وأنا لا أرى إلا هذه الخطوة.

المحطة الخامسة والثلاثون

فاصفح عنهم وقل سلام

يا صاحبي، بعد كل هذا الصراع، تعلّم كيف ينهي الوحي المعركة داخل قلبك.
آخر آية:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

يا للعجب.

بعد التكذيب.

والسخرية.

والجدال.

والافتراء.

ما الكلمة التي يختم الله بها السورة؟

سلام.

ليست سلام المستسلم.

ولا سلام العاجز.

بل سلام من سلّم الأمر لله.

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

وهنا سر القوة.

لا تحتاج أن تكسر كل خصم بيدك.

ولا أن تربح كل جدال.

ولا أن تسمع اعتذار كل من أساء إليك.

هناك أشياء يحسمها الزمن.

وأشياء يحسمها الموت.

وأشياء يحسمها يوم القيامة.

أنت حافظ على نقاء قلبك.

وقل سلاًماً.

وامض.

إن أسوأ انتصار أن تهزم خصمك وتصبح شبيهاً به.
وأجمل انتصار أن تعبر الأذى ويبقى قلبك لله.

الختامة

حين تسقط الزينة ويبقى وجه الحقيقة

يا صاحبي، لقد وصلنا إلى آخر السورة؛ فدعنا ننظر مرةً أخيرةً إلى الطريق الذي عبرناه.
بدأنا بالكآب.

ثم مررنا بالسماء.

والأرض.

والمطر.

والسفن.

والأنعام.

ثم رأينا البشر يصنعون من أوهامهم عقائد.
ويعبدون ميراث الآباء.

ورأينا إبراهيم يقف وحده بكلمة:

(إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي).

ثم دخلنا سوق المقاييس البشرية، حيث قالوا:

لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم؟

فعلمنا الوحي أن:

(وَرَحِمْتُ رِبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ).

ثم دخلنا بيوت الفضة.

والمعارج.

والسرر.

والزخرف.

حتى اكتشفنا أن كل ذلك:

(مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

ثم رأينا القلب حين يعرض عن الرحمن كيف يجد الشيطان مقعداً فارغاً بجواره.

ورأينا القرن الذي كان محبوباً يتحول يوم القيامة إلى أمنية بالبعد.

ثم دخلنا قصر فرعون.

وسمعه يقول:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ).

ورأينا الأنهار التي تفاخر بها.

ثم رأينا يغرق.

ففهمنا الرسالة:

ليس كل من جرى النهر تحت قدميه مرضياً عنه.

وليس كل من مشى في الصحراء مهاناً.

قد يمشي موسى في الصحراء وتبعه عناية الله.

ويجلس فرعون على العرش وقد كُتِبَ سقوطه.

ثم مررنا بعبسى عليه السلام، فرأينا جمال العبودية وصفاء التوحيد.

ثم دنت الساعة.

وانقلبت الصدقات.

وانقسم الناس.

هناك فريق يسمع:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ).

وفريق يقول:

(يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ).

وهنا ينكشف معنى السورة كله.

إنها لم تكن تتحدث عن الذهب.

كانت تتحدث عن العين التي تنظر إلى الذهب.

لم تكن المشكلة في الزينة.

كانت المشكلة في ميزان القلب.
فالْمُؤْمِن يرى القصر ويعرف أنه متاع.
ويرى الفقير ويعرف أن قيمته ليست في ثوبه.
ويرى الطاغية ويعرف أن سلطانه ليس برهاناً.
ويرى نفسه في المرآة ويعرف أن جسده عابر.
ويرى القرآن فيعرف أن هنا الكلام الذي يستحق أن يبني عليه أبديته.
يا صاحبي...

الزخرف ليس دائماً ذهباً.
قد يكون مدح الناس زخرفاً.
وقد تكون الشهرة زخرفاً.
وقد تكون الفكرة التي تمنحك شعور التفوق زخرفاً.
وقد تكون الجماعة.
والمنصب.
والنسب.
والصورة.
والانتصار في الجدل.
وحق العلم قد يصبح زخرفاً إذا لم يقربك من الله.
كل شيء يمكن أن يتحول إلى زينة على جدار القلب، حتى لا يبقى في القلب مكان
لصاحبه.

لهذا تسألك سورة الزخرف بعد أن تطوي آخر آياتها:
ماذا بقي في قلبك إذا نزعْتَ منه الأشياء التي يراك الناس بها؟
إذا ذهب المال.
وضعف الجسد.
وغاب المادحون.
وسقطت الألقاب.
وتفرق الأصحاب.

وأغلق الهاتف.
وجاء الليل.
وبقيت وحدك...
من تكون؟
هنا يبدأ الصدق.
أن يكون في قلبك شيء لا تستطيع الدنيا أن تأخذه منك.
يقين.
ذكر.
قرآن.
معرفة بالله.
وشوق إليه.
فهذا هو الغنى الذي لا يفلس.
وهذه هي الزينة التي لا تبهت.
وهذا هو النور الذي لا تنطفئ مصابحه حين ينطفئ العمر.
يا صاحبي...
لا تسأل الله دائماً أن يعطيك أكثر.
اسأله أحياناً أن يجعل ما أعطاك أصغر في قلبك.
لا تسأله فقط أن يفتح لك أبواب الدنيا.
اسأله ألا يجعل الدنيا أكبر أبواب روحك.
ولا تخش أن يفوتك بعض الزخرف.
فقد يفوتك شيء من الذهب، ويبقى لك الله.
ومن بقي له الله، فما الذي فاته؟
ثم إذا ارتفع ضجيج الأرض حولك...
وقال الناس:
من الأغنى؟
من الأقوى؟

من الأشهر؟

من الأعلى؟

فعد إلى السورة.

واسمعهما تقول في هدوء:

(وَرَحِمْتُ رِبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ).

ثم ضع يدك على قلبك.

وامض في طريقك خفيفاً.

لا يحمل قلبك من الدنيا إلا ما يعينك على الوصول.

فإن العمر كله سفر.

والأشياء كلها عارية.

والزخارف كلها ستهت.

ولن يبقى في آخر الطريق إلا حقيقة واحدة:

أنك كنت لله...

أو كنت لما سواه.

ثم يأتي الختام، نقياً كيد أغلقت باب الخصومة وفتحت نافذة اليقين:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

سلامٌ على قلبٍ عرف أن الله أبقى من كل شيء.

سلامٌ على روحٍ مرت بزخرف الدنيا ولم تسمح للزخرف أن يمر إلى عرشها.

سلامٌ على عبدٍ عرف أن الطريق يبدأ بالوحي، ويمر بالتوحيد، وينتهي عند الله.